

الديمقراطية "المجوقلة"

خيرى منصور

الخليج 2007-6-7

لو جمعت النعوت التي وصفت بها الديمقراطية خلال العقد الماضي لتجاوز عددها الألف، وهي نعوت تراوح بين السخرية السوداء والجدية الدراماتيكية، لأنها تعبر عن مواقف متباعدة، وأحياناً متناقضة، من ديمقراطية مفروضة من الخارج ولأسباب تخص استراتيجية الآخرين.

لكن الصفة التي أطلقها غسان تويني على ديمقراطية ربيع الساعة الأخير في العالم المتأمر، وهي الديمقراطية "المجوقلة"، تبقى هي الأرق والأقرب إلى الحقيقة، لأن مصطلح الجوقلة مستعار من القاموس العسكري ويعني المنقول جواً، ومن حق أي صحافي أو معلق أن يضيف نعتاً آخر، كأن يصف الديمقراطية بأنها "برمائية" كالضفادع مثلاً، لأنها تعيش في الماء واليابسة معاً، شرط أن يكون هناك سيد لهما.

والخطأ المتكرر والمحروم من أي استدراك في المعالجات المكرسة للديمقراطية يتلخص في أمرين، أولهما إغفال البعد الثقافي والتربوي للديمقراطية، باعتبارها اعترافاً متبادلاً بين الأطراف، وبديلاً أرقى من كل صيغ النبذ المتبادل والإقصاء، وثانيهما هو أن الديمقراطية ليست وصفة جاهزة يمكن تقديمها إلى مجتمع ما بمعزل عن عناصر تكوينه ومستواه الثقافي ومنسوب الحراك الاجتماعي والسياسي فيه.

لهذا لا يليق بالديمقراطية ما يسمى حرق المراحل أو القفز عن الفجوات من أجل تلافي التعثر والانزلاق، وما من ديمقراطية في التاريخ منذ مجلس الاليفورا اليوناني قبل أكثر من خمسة وعشرين قرناً حتى الآن، لم يكن لها ثمن باهظ، لأن استحقاقاتها على قدرها، والمرات التي قدمت فيها ديمقراطيات موسمية، وشكلية وذات طابع احتفائي واستعراضى انتهت إلى كوارث، لأن النقيض الحقيقي للديمقراطية ليس الديكتاتورية، بل هو الديمقراطية الزائفة والمصنعة بواسطة الأنابيب كبديل للأصل. والبديل غالباً ما يؤدي إلى تكاسل وتفاعس وإركان على الموجود، وهي بذلك تحول دون النمو العضوي لطواهر تاريخية في مقدمتها الديمقراطية.

وقد يكون المقصود بمصطلح الديمقراطية المجوقلة، كما عبر عنه غسان تويني، هو ما تحمله الدكتوراة رابيس في حقائبها الأنيفة من معلبات ديمقراطية صالحة للاستعمال خارج الولايات المتحدة ومعفاة من الضرائب لأنها معدة للتصدير فقط.

إن السؤال الديمقراطي لم يبدأ في عالمنا العربي مع تحرك الأساطيل نحو المياه الدافئة، فهو سؤال قديم، يتجدد مع كل جيل، لكن الولايات المتحدة لا تعبأ بالتاريخ ونادراً ما تقرأه، لأنها تتضرر منه، وتود لو أن العالم بدأ عام 1620 ومع شركة الهند الشرقية فقط.

خيرى منصور